الانتماء والاختلاف

دراسة سوسيولوجية ثقافية في (رملة تغسل الماء) للشاعر حيدر العبدالله(١)

د. عبدالرحمن يحيى حسين الحازمي

أستاذ الأدب المساعد بكلية الآداب والعلوم بوادي الدواسر

جامعة الأمير سطام بن عبدالعزيز

الملخص

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن تأثير الالتزام الاجتماعي والثقافي وأنساقهما على بناء القصيدة الوطنية . ويسعى إلى بيان بعض مظاهر الضعف التي تتكشف بقدر ما يدفع الشاعر نصه إلى الالتزام بعناصر مفروضة عليه خارج نصه. وقد ارتكز البحث على ديوان (رملة تغسل الماء) للشاعر حيدر العبدالله ليكون متنًا تطبيقيًا، معتمدًا في منهجه على آليات قراءة الأنساق الثقافية والاجتماعية. وخلص إلى عدد من النتائج:

١- الشعر وجداني ذاتي، وإذا تكلف وظيفة اجتماعية خارجة عن أصله أصابه الضعف. ووقع الشاعر في شيء من هذا الالتزام فظهر على بعض نصوصه ضعف.

٢- ينتمي الشاعر إلى بيئة الأحساء، ولذلك فشعره الوجداني الوطني يستقي كل عناصره من بيئته الأم.

٣- الانتماء يعني التزام الشاعر بعناصر كبرى في وطنه قد لا تتفق مع ثقافته أو بيئته، لكنه يضطر إليها، وهنا ينشأ الضعف

الكلمات المفتاحية:

الشعر الوطني – التأثير الاجتماعي والثقافي – رملة تغسل الماء– حيدر العبدالله

(١) تم دعم هذا المشروع بواسطة عمادة البحث العلمي بجامعة الأمير سطام بن عبدالعزيز من خلال المقترح البحثي رقم9919/ 2019/02

مقدمة

الشعر حالة ذاتية يجب أن تكون بعيدة عن كل إملاءات المجتمع أو النقد أو المعايير، هو حالة معاييره في ذاته وقوانينه من أعماق النفس التي تصدره.

لكن يبقى الشاعر ابن بيئة ينهل من معينها منذ طفولته حتى هرمه، من زمانها ومكانها وثقافتها الدينية والاجتماعية، لا تنفك تلك المقومات عن ذاته إلا أن تكون حاضرة في مقولاته وأدبه، والخطاب الشعري أرقى إنتاج يمكن أن يصدره إنسان، لهذا يسعى فيه أن يبعده عن العزلة داخل ثقافة واحدة ومجتمع واحد ومكان وزمان معينين، وأن يكون منطلق الشعر من ذاته وأثره عام في كل الثقافات والاتجاهات الفكرية.

موضوع الدراسة:

السؤال الرئيس في هذه الدراسة: هل يمكن للشاعر أن ينأى بشعره عن ظروف النشأة الفكرية والثقافية؟

هذا ما ترفضه بعض الاتجاهات الواقعية في دراسة الأدب التي تقف موقفًا ضدًّا من الشعر الصافي ومدرسة الفن للفن، باعتبار أن الأدب جزءًا من كينونة الإنسان ووجوده، وأن شعره سيشتمل حتمًا على أنساق وكلمات ولدت داخل ثقافته التي نشأ عليها فيأتي بها دون وعي منه.

وليس لهذه الكينونة التي تظهر ملامحها عيب على الشعر، لكنها محاولة لفهم الذات الشاعرة، وفهم البيئة التي نشأ فيها النص الشعري، ومن بعد فهم أثر هذه البيئة على التجربة الشعرية إيجابًا وسلبًا، خاصة إذا قرأناه وهو ينتمي للثقافة ويختلف معها في آن واحد.

والشاعر حيدر العبدالله من الشعراء الشباب الذين بلغوا شعبية كبيرة في الفترة الأخيرة، وبالنظر إلى ديوانه (رملة تغسل الماء) نجد حرصه في أن ينطلق شعره في اتجاهات بعيدة عن كل حسابات الثقافة الاجتماعية والدينية، وبخاصة في قصيدة الوطنية التي تحمل عنوان الديوان نفسه، لذا رأيته مدونة مناسبة لقراءته ثقافيًا ونسقيًّا.

أهداف الدراسة

١) الكشف عن طبيعة العناصر الشعرية ذات الصفة الوجدانية في تشكيل القصيدة الوطنية.

٢) الوقوف على تأثيرات العناصر المفروضة على الشاعر من خارج وجدانه وطبيعته التي نشأ عليها التي يجد نفسه مجبرًا على الاهتمام بها في قصيدة شعرية كتبت لمناسبة.

منهج الدراسة:

باعتبار أننا نتعامل مع مادة شعرية فإننا بحاجة إلى دراسة نصية تلتقي بالشعر مع الظروف الاجتماعية وسياقاتها الثقافية، وباعتبار أن الدراسة الثقافية هي جزء من البيئة الاجتماعية فقد تم الاستعانة بالمعطيات السوسيولوجية وآليات قراءة الأنساق الثقافية.

الدراسات السابقة:

حيدر العبدالله من الشعراء الشباب الذي لم ينالوا حظهم من الدراسات العلمية. وتعد هذه الدراسة الأولى – على حد علم الباحث– التي تتناول أحد أعماله الشعرية.

موجز عن الشاعر حيدر العبدالله.

حيدر العبدالله شاعر سعودي أحسائي، ولد عام ١٩٩٠م، واستطاع رغم تجربته الشعرية القصيرة أن يصنع نموذجًا فريدًا من الإبداع، فقد حقق في عام ٢٠١٣م بردة شاعر شباب عكاظ. وفي عام ٢٠١٥م حقق لقب أمير الشعراء في البرنامج المعروف بأبو ظبي. كما حقَّقَ المركز الثاني ٢٠١٤م في جائزة عبدالعزيز البابطين للإبداع الشعري. وصدر له ديوانان شعريان هما (ترجل يا حصان)، (ورملة تغسل الماء).(٢)

في عام ٢٠١٦م وأثناء زيارة خادم الحرمين الشريفين للمنطقة الشرقية ألقى قصيدة بعنوان (مخطوطة القرى والظلال)، فلاقت انتقادات واسعة على مواقع التواصل الاجتماعي وبخاصة في القاء الشاعر لبعض أبياتها. وسوف نمر على نحو سريع على رؤية حول هذه القصيدة والسبب الذي جعل الناس يعدونها إخفاقًا في شعرية حيدر والشعرية الوطنية الملكية.

يمتاز شعر حيدر العبدالله باعتماده على شعرية التفعيلة اعتمادًا كبيرا، ولعل هذا قد أتاح له مساحة شعرية تناسب لغته الحالمة ودلالاته الوجدانية العميقة، فهو شاعر رومانسي بامتياز. حين نقرأ شعره نلتقي بالحب والوطن، والماء والظلال، والنخيل، والقمح، وكل معالم الطبيعة، يستدعيها ويمنحها صدقًا شعوريًّا من ذاته وحياته.

(١) الموسوعة العالمية على الرابط: https://ar.m.wikipedia.org/wiki
وراجع: صفحة الشاعر على تويتر (@haidaralabdulla)

المبحث الأول: الاختلاف (مدلولات الذات).

الشعر ذاتي، علاقاته الرئيسة هي علاقة الذات، في حدودها المجردة عن محيطها الخارجي، باللغة والصور والمعاني وعناصر الشعر كافة. أي أنه متمرد على كل المواضعات الاجتماعية، يقوى كلما انفصل عن املاءات المجتمع، واتصل بالذات القائلة وبمكنوناتها الخاصة.

فهذه الذات هي أعرف بمشاعرها وتفاصيلها الخاصة، هي وحدها الأقدر على نقل ما تكنه إلى صور لغوية حسية. ولأن هذا الافتراض هو طبيعة الشعر، أو لنقل هو الطبيعة الرئيسة للشعر، فإن قصائد الحب والحزن والعواطف الإنسانية الخاصة هي أكثر ما يؤثر فينا، وأكثر ما نردده ونحب سماعه؛ لأنه ينطلق من قلب صاحبه إلى قلوب متلقيه. بينما نحن أبعد بذواتنا، نستجيب سريعًا ونودع سريعًا، حين نتلقى نصًا شعريًّا بعيدًا عن هذه الذات، يرضخ لمعايير معينة ترتبها المواضعات الاجتماعية، كقصائد المناسبات الرسمية والحفلية.

ولأن حيدر العبدالله شاعر وجداني ذاتي في المقام الأول كان شعره فرصة لتلك المتناقضات بين الذاتي وغيره. فديوانه رملة تغسل الماء يكاد يكون ديوانًا وطنيًّا بكل محتوياته، لكنها ليست الوطنية التي اعتدناها في آذاننا مرتبة وفق عناصر يعرفها وعينا الاجتماعي العام، وإنما وطنية الذات التي تتداخل مع الخاص في تراب الوطن ورمزه وتشكلاته وعوالمه. ومع هذا لم يسلم الديوان من الانحدار في تلك القوانين التي يجب ان يلتزم بها الشاعر، لأنها ليست من تشكيل وعيه، وإنما هي في اللاوعي متشكلة وفق أنماط اجتماعية متوارثة ومتواضعة.

ومن أجل توضيح الفكرة أكثر علينا مناقشة بعض نصوصه الشعرية، بداية من تلك التي تشكل (اختلافًا) عن الطبيعة الاجتماعية، وتعكس مدلولات ذاتية خاصة. يقول في نص شعري بعنوان (برتقالية أحب الهدايا):([٣])

تتحاشاني الطيور العطاشى

وأنا قمحةٌ

ولا أتحاشى

وأنا من بذلت حبي كعكًا

لشتاهم

وسنبلي أعشاشًا

ربّ طيرين خيما بين قشي

ليلة خارج الزمان وعاشا

. . .

برتقالية كأي خريف

عائد بعد أن يبست ارتعاشا

كاللظى

حين تخبز القلب للغيّاب كعكًا

وقد اتوك فراشًا

(٣) ديوان رملة تغسل الماء. حيدر العبدالله، جامعة الطائف، وسوق عكاظ، ط١، ٢٠١٦م، ص ٢٩.

والنص أكثر من هذا، وقد اقتطعت أوله وآخره. وهو من أكثر شعره غموضًا في كشف دلالاته الوطنية، ولا يتأتى ذلك إلا إذا تابع متلقيه مسيرة إخلاص تلك السنبلة التي تولد قمحة لتخبز فتكون أساسًا لكعكة، ثم تسير في وفائها على الأرض، الطيور تلجأ لها، والأحناش تلتف حولها فتتحمل أذاها... وهكذا تمضي حتى يأتيها الخريف، فيصبح جذعها صالحًا لنار تُنضج الكعكة التي خبزت من قمحها. وهكذا تكون وافية من أول ما تولد حتى تموت، متمسكة بأرضها، مؤمنة بثوابتها وقوانينها، مدركة لمسؤلياتها. وكأنما هي الإنسان الوطني المحب لأرضه، الذي يولد في حبها ويموت في حبها دون أن يهتز شيء من ذلك.

ولما كانت القمحة رمزًا للحياة كانت الكعكة رمزًا للفرح، بمعنى أن الفرح يولد من رحم الحياة، والحياة تولد من رحم الإخلاص. وهكذا تكتمل المعاني الوطنية بين رمزين ذاتيين بسيطين يعيشهما الشاعر في بيئة الأحساء الزراعية، وطبيعة الحياة المعاشة اليومية، لكنهما شكلا الحياة بأكملها والوطن بكل مضامينه الرئيسة.

ويقول في نص بعنوان (ما يهرول في الركبتين): (٤)

يحاول وجهي الصباح اللطيف
ويبعثني كالرذاذ الخفيف
تحنُّ عروقي لعطر النخيل
وتشتاق نفسي لطعم الرغيف
لمبسم أمي التي حين تضحك
تغسل شريان قلبي الضعيف

(٤) رملة تغسل الماء، ص ٣٧.

فأخرج في المطر اللندني

يهرول في ركبتيّ الرصيف

وفي هذا النص يعلن صراحة أنه يقصد وطنه ويعبر عن غربته، غير أنّ الوطن في قاموس الغربة دائمًا يستحضر الذات ووجودها الوطني الخاص، وقلما نجد مغتربًا يخضع للالتزام بعناصر القصيدة الوطنية المعروفة، وإنما ينطلق من خصوصيته المكانية والشخصية. وهذا حيدر العبدالله في هذا النص يسترفد قاموسًا خاصًّا، لعل أبرز ما فيه النخيل، ذلك الذي اقترن بذهنية الإنسان الأحسائي. والنخلة عمومًا في البيئة العربية ذات وجود خاص، لأنها تعني العطاء الدائم، وعطاؤها متصل غير منقطع، وتمرها مداد غذائي متكامل للإنسان، ومن سعفها الظلال وصناعة حاجات الإنسان. . . ولهذا خلدت في المكون الذهني على أنها تعني الأمان والاستقرار والحياة في مفهومها الإنساني البسيط. وهي في النص تتكامل مع غيرها من المعاني الخاصة مثل الرغيف الذي يعيدنا إلى سيطرة رمزية السنبلة والقمح على ذهنية الشاعر، ومنها إلى المعاني الأكثر خصوصية مثل مبسم الأم. وتتمتع لغة حيدر العبدالله في هذا النص وغيره من النصوص بقاموس شعري قادر على استهلاك المفردات اليومية في الحياة مثل كلمة الرصيف التي احتملها النص السابق ويمنحها طاقة شعرية. وما يمكن لهذه اللغة المتداولة أن تحتمل طاقة شعرية جديدة إلا من خلال الباعث الصادق الذي يبثه الشاعر في نصه الشعري، وهذا الباعث لا يتأتى في الشعر الذي يلزم بها إلزامًا.

لذلك فالنص الوطني أوسع من أن يكون مُلزَمًا بقوانين متداولة يأخذها شاعر عن آخر، إنما النص الشعري نبع من الحياة خاص، يورد المعتاد في المعنى الشعري في صورة جديدة ولغة جديدة.

وقد شكلت النصوص السابقة الشكل الوطني الأول في الديوان، وهو الشكل الوجداني الخالص، الشكل الذي يذكرنا بما يقره النقد دائمًا وهو أن الشعر حالة ذاتية، بمعنى أن الذات هي التي تصنع الشعر في إطار جديد. فمما يلاحظ أن المعاني الوطنية في دائرة الخصوصية تخرج من دائرة المعاني المعتادة في الوطنية القائمة على الحماسة والافتخار وتجلية المعالم والرموز العامة. تتجاوزها كلها إلى تقرير معان خاصة، هذه المعاني تجعل الشعر يتنفس في إطار الدلالة المكثفة والصورة الجديدة

ولعل هذه الخاصية الشعرية هي واحدة من الخواص التي جعلت روّاد الفن يتبنون مدرسة الفن الخالص أو ما يعرف بمدرسة الفن للفن، منتقدين كل الاتجاهات الواقعية التي تحاول أن تحمل الشعر وظائف حياتية ومعنوية ليست من عمله. بل لأجل عالم الفن هذا كان الاتجاه الرومانسي يعول على المعاني الذاتية ويغرق في تأويلاتها ودلالاتها.(١)

(١) الالتزام في الشعر العربي، د. أحمد أبو حاقة، دار العلم للملايين،ط١، ١٩٧٩م، ص ٤٤.

المبحث الثاني: الانتماء (الذات والآخر).

إن الذاتية الخالصة كما تبيناها في النصين السابقين قد أعطت الدلالة الوطنية جانبًا فنيًّا يليق بالشعر والفن. هذا الجانب القائم على الذاتية هو الذي دفع جان بول سارتر إلى إنكار أن يكون الشعر ملتزمًا بمبادئ معينة اجتماعية أو وطنية أو قومية، لأنه يراه كالموسيقى والألوان ينطوي جماله على ذاته لا على مسؤوليات خارجة عنه.([٦]) ومتى تكلف الشعر ما ليس منه أصابه الوهن والضعف.

بمعنى أن الشاعر متى أراد أن يساير غيره في معاني الوطنية مثلاً؛ يسير على تراتبية موروثة ضعف شعره مهما كانت جودته. ولن تجد جمل قصائده الوطنية إلا في صوره التي يخلقها بعفويته الفنية ومشاعره التي تتقد في لحظة غير متوقعة، فيخلع عليها من شعوره المكنون ويرسلها بصور توالدت حديثة.

وقد عُرف عن حيدر العبدالله أنه واجه نقدًا واسعًا في فترة من الفترات؛ لسبب واحد فقط في رأيي، هو أنه أراد يدخل القصيدة الوطنية في قالب الشعر المنبري، ولم يدرك أن للقصيدة الوطنية المنبرية عناصر ليس في الضرورة أن تكون شعريّة، إنما هي عناصر متبعة يلتزم بها الشعراء كتخير اللفظ والقافية وتناسبهما مع طبيعة الإلقاء المناسب للمساحة العريضة من المتلقين.

وإذا ما عدنا إلى رملة تغسل الماء وجدناه يقع في فخ الالتزام من أجل أن ينتمي إلى هذا النسيج الكبير من قصائد الوطنية. وأول ما يمكن أن يلاحظ عليه أن دلالاتهتهرب من طبيعته الرمزية ودلالاته العميقة، إلى لغة أقرب إلى التناول وأقرب إلى ذائقة المتلقي العامة.

يقول في نص شعري بعنوان (أغاني عكاظ): ([٧])

---

(١)راجع: ما الأدب؟ جان بول سارتر، ترجمة: محمد غنيمي هلال، نهضة مصر، ص ٤٥ ـ ٦٣.

(١) رملة تغسل الماء، ص ٦٥.

كأنها عكاظ؟

والعروبة الفقيدة؟

كأنه الإنسان ينمو داخل القصيدة؟

ألست تسمع الهسيس؟

أصغِ. .واتّبعه

فالصوت يستمد من إصغائنا خلوده!

بعيدة يا سوق!

إلا أننا وصلنا

لأننا نليق بالأماكن البعيدة!

ماذا

أتيتَ

تشتري؟

كيسًا من الخلودِ؟

أم خيلاً من الخيال؟

أم أغنية من عبقر؟

الناظر في النص سيدرك مباشرة أنه نص نظم لمناسبة شعرية. فحيدر العبدالله من الشعراء الذين فازوا بجائزة شاعر عكاظ لفئة الشباب في دورة من دورات السوق. وهنا يجب أن نضع في اعتبارنا أنه يضطر إلى أن يجاري في كتابته الشعرية متطلبات الموقف، فينظم استجابة للجائزة والمشاركة.

فالنص ليس هو ذلك النص الذي ينطلق من عفوية الذات ومن قاموسها الخاص ومن طريقتها الشعرية الخاصة، وإنما يبدو عليه التكلف وشيئًا من السطحية في بعض أجزائه،

كأن يقول: (بعيدة يا سوق، إلا أننا وصلنا، لأننا نليق بالأماكن البعيدة)، هذه الصورة التي لا يمكن أن يقال عنها إلا أنها تعبير أتى مجاراة للموقف، وإن كان في نفس افتخار، إلا أنه ليس هو وجدان حيدر العبدالله، وليست هي صورة ذات الأبعاد الكثيفة.

وليس بمستغرب أن نتأمل هذه الصورة السطحية إذا نظرنا إليها في مكانها من النص، إذ ليست سوى محاولة لإنقاذ القصيدة من ضيق الروافد الشعرية، إذ إن الشاعر وقف في هذين النص بين موقفين، الأول الالتزام بروافد التاريخ التي تخص عكاظ والقومية العربية، والثانية أنه شاعر ذاتي لا موسوعي أو ثقافي. بمعنى أنه لا يملك قدرة على استيعاب أكثر عمقًا لروافد التاريخ فيما يخص عكاظ. فإذا ما تفحصنا قاموسه في هذا النص ما وجدناه إلا عرضًا لما يعلق في الذاكرة عن أن عكاظ وجوه من وجوه عروبتنا، فهاهو يعرف فقط أنه (عروبة فقيدة) ، وأن الناس تسير إليه (تشتري)، وفيهم قوم من (عبقر) كناية عن براعتهم ودهائهم.

إن هذا النص هو نص خارج عن إطار شعرية حيدر العبدالله المعروفة، وهو حتمًا لأنه استجابة لموقف لا استجابة لنفس شاعرية، وبمعنى مختصر هو ابن غير شرعي لشعرية حيدر العبدالله. إنه النص السابق التزام سطحي لمقتضيات معينة.

وفي عكاظ ذاتها يفوز بجائزة عكاظ عن نص شعري وطني. ولولا الوجود الذاتي الخالص الذي نلمسه في قصيدته الوطنية هذه الفائزة بالجائزة لكان النص شيئًا يشبه غيره من قصائد المناسبات التي لا ماء لها، إنه نستطيع أن نقول عنه إنه حالة شعرية خاصة استطاع حيدر العبدالله أن يتناسى الجائزة والمناسبة وأن يعبر بوطنه من خلال ذاته وشخصيته.

يقول في هذا النص وهو بعنوان (رملة تغسل الماء): ([1])

وطن

(١) رملة تغسل الماء، ص ٧١.

لم تكبح الشمس رمله

عطش الآماد لم ينهك صهاله

رحلة تأخذه من حقبة

عبر أخرى

والمسافات سلاله

كلما جاء على ذاكرة

سار منها مالئا منه رحالهْ

هكذا بدأ النص بداية كأنما توقظ المتلقي إلى أن ذهنية القائل تخبئ وراءها مادة مليئة من اليقين الوطني الذي خلد منذ الصغر في الذاكرة حتى أصبح رافدا ملهما للشعرية. فكل هذه المسافات عبر التاريخ التي يعرفها الشاعر يتدفق منها الفخر ويعانقها الوجدان والحب. وكأنما يقول لنا أن هناك سلسلة من المفاخر الوجدانية التي أكنزها في ذاكرتي، وسأبدأ في تفصيلها شيئًا فشيئًا.

يقول في النص ذاته أيضًا:

من هنا

قد بدأ الإنسان مشواره في الأرض

واستأنف فاله

قبل نوح

بذرة الكون هنا انشطرت

واتخذ الكون جماله

فإذا ما هدأ الطوفان

لم تبق إلا زمزم منه ثمالة

وطن النفح السماوي فهل

من نبي ثم لم يعبر خلاله

حسبنا أن لدينا المصطفى

ولنا الأرض التي الله اصطفى له!

هذه العناصر عناصر قومية، أو وطنية، لكنها تمثل خارطة كبرى للانتماء على هذه الأرض، فكل الخلق هنا تشربوا في ثقافاتهم هذه الرموز الكبيرة وآمنوا بقداسة الوطن الذي يعيشون عليه حيث زمزم ومكة، والنبي (ص) والرسالة، فهي قوانين تصاحبهم منذ أن رأوا نور الحياة، أي أنها رموز بعيدة عن الإيديولوجيات الدينية والسياسية الي نشأت من بعد عهد النبوة. فاستطاع شاعرها أن يخرج بها من قوانين الالتزام التي قد لا يجيد بناءها ولا يجيد تقليد الآخرين فيها.

وهو إن كان قد أتقن هذه الاستراتيجية في بناء القصيدة الوطنية على غير المعتاد حتى إنها لاستحقت الجائزة، إلا أنه لا يمكن أن ينفصل عن قاموسه الخاص الناشئ من بيئته الخاصة. يقول في النص ذاته:

من جذوع النخل يبنون الحمى

ويحيكون من الخوص ظلاله

يغسلون الماء بالطين

ففي الطين أعماق

وفي الماء ضحالة

. . .

وطن كالقمح

إن أعطيته نية الفلاح

أعطاك غلاله

وهذه لا ريب لغته الخاصة، أو هي وطنه في حدود بيئته، لأنها يبنيه من لغة الخبير بطبيعة الحياة في بيئة الأحساء، حيث جذوع النخل، والحمى، والخوص، والطين، والماء، والقمح والفلاح، والغلال...، وهي عمومًا أشكال رمزية تأتلف مع طبيعة هذا الشاعر ومع تكوينه الذي يلازمه في نصوصه الشعرية، مثلما بينا في الرموز السابقة.

لكن تظل قصائد الجوائز فخًّا قلما يسلم منه شاعر، إذ يقعون رغما عنهم في الالتزام العام، وإذا ما وقعوا اعتنوا باللفظ والمفردة على حساب الصورة والمعنى والخيال. وهذا حيدر وقع هو الآخر في هذا النص أو كاد. يقول:

ألهمينا يا (حجاز) الله

يا (هجر) النخلة

يا (نجد) الغزالة

فالحجاز، ومن بعدها طيبة، ومن بعدها نجد، على نحو تراتبي دون إضافة أي معنى آخر، أو تفصيل لمكانة كل منها. فلو قلنا إن الحجاز وطيبة قد سبق ذكرها مع النبي ε وزمزم، فإنما يدل هذا على أنه وجد نفسه ملزما بذكر نجد وهي قلب البلاد. وفيما يبدو أنها لم يطب له ذكرها دون أن تسبقها مكة والمدينة على سجية شعراء الوطن عمومًا. وهكذا فيما يظهر وقع في فخ الالتزام، لكنه لم يكن شيئًا بجانب تلك الوجدانيات الخاصة التي عبر بها عن الوطن. ولربما كان هذا النص مما لم يكتب كله من أجل المسابقة والجائزة لكنها وافقها وقدم لها، فلغته وطبيعته وحالته الشعرية لا تقول بأنه نص شعري تم بناءه وفق معايير محددة مسبقا.

ثالث النصوص الشعرية في الانتماء الثقافي والاجتماعي والإيديولوجي يطل به حيدر العبدالله من خلال نص شعري يرثي بها الشهداء في العمليات التخريبية التي آلمت عددًا من

الجوامع في المملكة العربية السعودية، في الأحساء وأبها غيرها. وهذا النص بالتحديد يجعلنا نقف مع الموقف الإيديولوجي للشاعر، وهل كان حيدر العبدالله شاعرا خارجا عن الإيديولوجية؟

يقول في النص الذي جاء بعنوان (سأغني): ([1])

أنا لن أخرج مني
إنها أرضي أنا
أرضي
على إيقاع نبضي
خيطتها الريح من وعيي وغمضي
حلمي
قمحي
ومائي
وحجري
غيمي
سمائي
أساطيري وسلواي ومني
أنا لن أخرج مني
أيها الناشز عن غيري وعني
أيها الفاشل في العزف!
سأبقى وترا يهتز بالمعنى

(١) رملة تغسل الماء ٧٩.

وأما دمي الأحمر كالجوري

فالحناء للرمل

إذا اشتاقت يداه للتحني

كلما فجرت سربي

سأغني

كلما سجرت دربي

سأغني كلما أوجعت قلبي

سأغني

. . .

قبل أن يبدأ في هذا النص أراد ألا يجعل القارئ يتوه في قراءة النص، فوضع له مقدمة قال فيها: «إلى شهدائنا الأبرياء في الدالوة والقديح والعنود وعسير وسيهات ونجران ومحاسن».

النص يعول على مفردة الغناء التي يكررها كثيرا في النص، ووجود الغناء في نص يحتمل أن يتأثر بالإيديولوجية الدينية يشير إلى مبدأ إنساني عام يؤمن به الشاعر ويرفض كل تلك الأشكال التي تقيد الإنسان في إطار الإيديولوجية، فالغناء يرمز للحرية بكل أشكالها وألوانها، الحرية التي لا تؤمن إلا بالوطن والتعايش والحرية والأمان.

وإذا كانت الأرض تعني الحياة والحلم والأمان، وقد أتى الشاعر بما يدل على هذه الرموز حتى إنه لوظف رمزي القمح والماء اللذين يشيران إلى الحياة الآمنة؛ فإن التطرف يهدم كل تلك المعاني السامية وكل تلك الأحلام الجميلة، التطرف الذي يعبر في حياتنا الدينية على أساس أنه جزء ناشز عنا.

يقول (أنا لن أخرج مني، أيها الناشز عن غيري وعني)، وهذه كناية عن أن التطرف ليس له دين، فهو يؤكد على نحو ضمني إلى وجود مذهبين شيعي ينتمي له وسني، وكلا المذهبين ينبذان التطرف في مفهوم أصحابه الإنسانيين. فيغدو متحديًّا هذا الناشز بعقله وتطرفه ليؤكد له أن كل هذه الأشكال لا تقف دون الحية الحرة والكرامة، وأن الوطن أكبر منها، حيث الأرض والسلام والعيش.

وهكذا يمضي حيدر العبدالله ينسج شعره من وجدانه وذاته متمردًا على قوانين الالتزام في القصائد الوطنية وقصائد المناسبات إلا شيئًا يسيرًا. ولطالما أبدع هذا الشاب وأبهر المشهد الشعري بإبداعه لأنه يؤمن أن الشعر حالة خاصة لا دخل للخارج بها.

الخاتمة

هذه الخاتمة تتضمن أهم النتائج العلمية التي توصلنا إليها. وهي:

١- الشعر في أصله ذاتي وجداني، وحينما يتكلف وظيفة ليست له، كأنما تُلصق به وظيفة اجتماعية أو إيديولوجية معينة، يضعف. وحيدر بشعريته الوجدانية ابتعد عن هذا الفخ كثيرا، غير أنه وقع في بعض حالاته فأصيبت نصوصه بسطحية ملحوظة.

٢- يمثل حيدر اختلافًا عن غيره من الشعراء. والاختلاف نعني به الحالة الشعرية الخاصة. ولحيدر طابع اختلافي مستمد من بيئة الأحساء التي عاش ونشأ فيها وارتبط بها وجدانيًّا وذاتيًّا.

٣- الانتماء نعني به انتماء الشاعر لوطن كبير هو المملكة العربية السعودية، وانتماؤه لا إشكال فيه شعريًّا وثقافيًّا إذا كان الشاعر ينطلق من وجدانه في أي جزء من هذا الوطن، لكن الإشكال أن الشاعر يضيع أمام تنوع البيئات الاجتماعية، وغالباً ما يقع الشعراء في قصائدهم الوطنية ضمن قوانين الالتزام بمعايير معينة، فتصاب القصائد بجانب سطحي مضر بالشعرية.

٤- القصيدة الوطنية هي التي تخرج من الذات، لا تركن إلى مناسبة، ولا تهرول نحو جائزة، هي للوطن فقط.

قائمة المصادر والمراجع

١) ديوان رملة تغسل الماء، حيدر العبدالله، جامعة الطائف، وسوق عكاظ، ط١، ٢٠١٦م.

٢) الالتزام في الشعر العربي، د. أحمد أبو حاقة، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٧٩م.

٣) ما الأدب؟ جان بول سارتر، ترجمة: محمد غنيمي هلال، نهضة مصر.

٤) الموسوعة العالمية على الرابط: https://ar.m.wikipedia.org/wiki

٥) صفحة الشاعر على تويتر (@haidaralabdulla)